

مولانا وحیدالدین خاں

من نحن

في سبتمبر عام ١٩٨٢م ، كنت في زيارة إلى العربية السعودية ، والتقيت هناك بعالم عربي ، فجرى بيننا حوار ذكر فيه أثناء حديثه ، أنه كتب مقالة نشرتها إحدى المجلات العربية وعنوانها (من نحن) قال : إننا أولاً وقبل كل شيء لا بد أن نحدد هوية المسلمين ونشخصها (Identity) قبل أن نبدي ملاحظاتنا وآراءنا حولهم . يلزم علينا أن نتعرف على هوية المسلمين في عالمنا المعاصر ، فإذا ما فعلنا ذلك نستطيع أن نرسم الطريق الصحيح الذي يمكن أن يسيروا فيه .

إن ما ذكره هذا العالم العربي قول صادق كل الصدق . إذ الواقع أن الإجابة على سؤال : (ماذا نعمل ؟)إنما تتوقف على الإجابة على سؤال : (من نحن) ؟ . فتحديد لوائح العمل القومية بشكل دقيق وصحيح لا يمكن أن يأتي دون تحديد الهوية القومية بشكل دقيق أيضاً . وبذلك نحصل على المعيار الذي يمكن أن نقيس به أعمال المسلمين وكل ما يقومون به أهو صحيح أم خطأ .

دعونا نضرب مثال أمريكا . فسؤال (من نحن ؟) كما يشغل بالنا فإنه يشغل بال الأمم الأخرى أيضاً . فنجد أمريكا - مثلاً - تضع المسألة نفسها في الاعتبار ، إذ يجيب عن ذلك الرئيس الأمريكي الثلاثون (مستر كالون كولج) الذي شغل منصب الرئاسة من عام ١٩٢٣م إلى ١٩٢٩م . وكانت إجابته هي : أن مهمة أمريكا هي التجارة .

The business of America is business.

فجعلت أمريكا موضوع التجارة هدفها المنشود في حياتها ، كما انصب جل اهتمامها على التجارة ، وكان النجاح حليفها إلى أبعد حد ، فقد سيطرت على عالم الاقتصاد طيلة خمس.وعشرين سنة منذ الحرب العالمية الثانية ، بداية من أرقى أنواع التكنولوجيا إلى الطاقة النووية إلى الآلات الالكترونية الدقيقة ، كل ذلك كان تحت سيطرة أمريكا . إلا أن بوادر التحول بدأت تلوح في سماء أمريكا بعد ١٩٧٠ ، وأخذت الأزمة تتفاقم شيئاً فشيئاً إلى أن قرعت أبواب أمريكا سنة ١٩٨٨م ، حيث بلغ التحول مداه مما اضطر أمريكا إلى إعادة النظر في اقتصادياتها .

إن الوضع الجديد اليوم هو أن كلا من اليابان وألمانيا الغربية وكوريا الجنوبية قد فرضت سيطرتها على الأسواق العالمية ، كما أن اليابان تتحكم في معظم تجارة أشباه المواصلات (Semi conductor) وقبل سنة ١٩٧٠م كانت أمريكا تزود العالم بـ ٩٥٪ من طائرات النقل الجوي إلا أن سائر الدول الغربية بدأت اليوم تتقدم في هذه الصناعات ، فطائرات (ايرباس) أخذت تسيطر على ٢٠٪ من أسواق النقل الجوي .

وخلاصة القول أن خللاً حدث في ميزان التجارة الأمريكية (Trade balance) ويقدر العجز المالي لأمريكا سنة ١٩٨٨م حوالي ٣٠ بليون دولار مقابل الدول الغربية و ٦٠ بليون دولار مقابل اليابان .

كان لدى الأمريكيين معيارٌ محدد ينظرون به إلى شؤونهم ألا وهو التجارة . وحين شرعوا في تحديد مواطن الخطأ وفق معيار التجارة كانت النتيجة التي وصلوا إليها هي أن اهتمامهم المفرط بالبحوث الدفاعية والتقنية العسكرية هو الذي خلق هذا الوضع غير المتوازن . لقد خصصت أمريكا – مثلاً – سنة ١٩٨١م نصف ميزانيتها للصناعات المتصلة بالدفاع ، وفي سنة ١٩٨٦م خصصت لهذا الأمر ٧٠٪ من ميزانيتها . بينما نجد اليابان – مثلاً –

قد صرفت في الوقت نفسه ٢ - ٥٪ من ميزانيتها في سبيل تطوير التقنية الدفاعية ، كما انشغلت أمريكا في صناعة القذائف والصواريخ بينما انصرفت الدول الأخرى إلى صناعة السيارات والكمبيوتر ، وكان نتيجة ذلك أن أمريكا رغم أنها أحرزت تقدماً في التكنولوجيا العسكرية (Military technology) إلا أنها أصبحت متخلفة في ميدان التقنية التجارية (Commercial technology) .

إن الخسارة التي منيت بها أمريكا كانت فادحة بالنظر إلى المعيار الذي يقاس به معدل زيادة المنافع القومية ونقصانها ، ومن ثم كان لزاماً عليها أن تغيّر وجهة سياستها وهو ما تتجه نحوه الآن ، فقد أصدر الكونغرس الأمريكي قانوناً تجارياً جديداً (US Trade Bill-1988) وذلك سنة ١٩٨٨م والذي تم بموجبه تحويل مسار الاقتصاد الأمريكي تماماً . قبل هذا كانت أمريكا تخصص معظم ميزانيتها في سبيل تطوير التقنية العسكرية ، والآن قد تغيرات نظرة أمريكا ،، وستصرف معظم دخلها في سبيل تطوير التقنية التجارية[1] .

لقد كان الرئيس الأمريكي (ريغان) يكره الاتحاد السوفيتي ، وينتقده انتقاداً لاذعاً ، ولم يكن يخطر ببال أحد أنه سيقوم بزيارة إلى موسكو ليعمل على التفاهم مع القيادة السوفيتية ، كان يطلق على السوفيت الامبراطورية الشيطانية (Evil empier) إلا أنه إذا لم يعمل على إنهاء علاقة المعارضة والمخاصمة مع السوفيت فلا يمكنه إغفال الأنشطة العسكرية والاتجاه إلى تطوير الأنشطة التجارية (إذا أردت تحقيق شيء فإنه قد يتطلب منك التنازل عن شيء آخر) لذا لجأت أمريكا إلى سياسة التفاهم والتبادل تاركة ما كان بينها

---

(١) Times of India ، ٦ سبتمبر ١٩٨٨

وبين السوفيت من علاقة الصدام . يقول مفكر أمريكي معقباً على سياسة التحول التي اتبعها ريغان : (يبدو أن السيد ريغان نفسه قد تخلى عن ريغانيته) .

Mr ,Reagan himself seems to have forsaken Reaganism.

وقد لخصت مجلة التايم ٢٦ سبتمبر ١٩٨٨م هذا المشروع في قولها : « إن توجه أمريكا كان من قبل مركزاً على البناء العسكري (Militarization) بينما انصب توجهها الآن في مجال نزع التسلح (Demilitarization) .

مسلمو العصر الحديث :

إن كل ما واجهته أمريكا من أوضاع يواجهه المسلمون اليوم إذ أن المسلمين المعاصرين - بغض النظر عن الحدود الجغرافية - منصرفون في التقاتل والتناحر مع إخوانهم تارة ومع الأمم الأخرى تارة أخرى ، مما أدى إلى تخلفهم في مختلف المجالات . والواقع الذي لا مراء فيه أن المسلمين أمة متخلفة في مجال العلوم والاقتصاد ، وسبب ذلك هذا التناحر والتقاتل . وبينما استطاعت أمريكا اكتشاف مواطن عثراتها خلال تجربة السنوات العشر ، حيث أحدثت تغييراً واضحاً في سياستها وبرامجها القومية وتخطيطها ، أمضى المسلمون ما يزيد عن مائة عام وهم يغطون في سبات عميق .

لقد خاض كل من الشيخ السيد أحمد بريلوي والشيخ شاه محمد إسماعيل حرباً ضارية ضد (رنجيت سينغ) سنة ١٨٣١م في إقليم البنجاب ، مني فيها المسلمون بهزيمة منكرة وأضرار فادحة في الأرواح والممتلكات . كما حارب علماء الهند الإنجليز سنة ١٨٥٧م وكانت هذه الحرب غير متكافئة إلى درجة كبيرة ، فنزلت بهم الهزيمة وألحقت بهم أضراراً فادحة ، ولم تزل آثارها سارية في أوساط المسلمين . وبعد أن تم انفصال الباكستان ١٩٤٧م

الداعية وليس الحاكم :

من المصائب التي مني بها المسلمون المعاصرون ما يسمى بجنون العظمة (Paranoia) أي هوس الأبهة ، وهو مرض نفساني يجعل المصاب به يعتقد بعظمة ذاته ، في حين أن الآخرين يرفضون عظمته ، فيذهب ضحية المتاعب والمشاكل التي تنشأ عن رفض الآخرين وتنكرهم له ، مما يدفعهم إلى المعارضة المستمرة له وهو لا ينفك يرفع الشكاوي ضدهم كل ذلك لعدم اعترافهم بعظمته .

ولعلنا نستطيع أن نفهم جنون العظمة من واقعة نعيشها في كل بيت وهي المشاكل الدائرة بين الحماة والكنة . إذ أن المرأة حين تنجب طفلها تقوم باحتضانه وتربيته فينشأ حب وشوق عميقان في قلبها غير عابئة بما يلحقها من الأذى والصعاب في سبيل ذلك ، إلا أنه حين تدخل فتاة إلى بيتها بصفتها (الكنة) وتشرع في العيش تحت ظله ، تبدأ بوادر الخلاف وتنشأ المشاكل التي تعكّر جو البيت وتكدّر صفوه ، فتنفر الحماة كنتها وتخوض حرباً ضارية معها مما يؤدي إلى تكدر جو البيت فلا طمأنينة للحماة ولا للكنة ولا للولد أيضاً .

ترى ما السبب في ذلك ؟ السبب هو أن الحماة كانت تمثل مالكة البيت وحاكمته الوحيدة قبل مجيء الكنة ، كانت الأمور تجري وفق رغبتها ورضاها ، إلا أنه بمجرد مجيء الكنة يحدث طبيعياً أن تتدخل الكنة في شئون بيتها ، كما أن الابن الذي كان يدفع رواتبه لأمه هو الآن يقدمها لزوجته بصفتها منظمة البيت ، وقد كان من قبل يستشير أمه في كل صغيرة وكبيرة يفعلها بينما هو الآن في ظروف جديدة فهو يستشير زوجته بدل أمه .

إن الحماة لا يمكنها التكيّف (Adjust) مع هذه الأمور الطارئة ،

فبالرغم من أن الحماة لا تعاني من مشكلة حقيقية أصلاً بل إنها تعيش في رفاهية أكثر مما كانت عليه من قبل إلا أنها تصاب بصدمة نفسية حين تفكّر في أنها بمثابة حاكمة البيت حتى الآن والكنة بمثابة المحكومة . إن ما نطلق عليه (خصومة الحماة مع الكنة) هو تعبير آخر لعدم تمكن الحماة من التكيّف مع الظروف الجديدة .

هذا الأمر قد تعرّض له المسلمون المعاصرون بشكل كبير ، إذ أنهم كانوا يمثلون الأمّ بالنسبة للعالم ، وفجأة شعروا بأنهم تحوّلوا إلى الحماة ، هذا التغيّر في حد ذاته ، لم يكن يحمل في طياته أيّ نوع من الخطر . لنقل : إنه حالة حدثت بموجب قوانين الله في الكون ، إلا أن المسلمين حين أخفقوا في تكييف عقليتهم طبقاً للأوضاع الجديدة ، بدأوا يشكلون الجبهة المعارضة تحت نظام جديد . إننا لا نخطيء حين نطلق عليه (السلوك الجنوني للعظمة Paranoic character) .

في الوقت الذي كان المسجد البابري محرّكاً لتصاعد ثورة الحركات الإسلامية كنت قد صليت الجمعة في المسجد وكان المسجد مكتظاً بالمصلين ، وحسب ما جرت العادة ألقى الإمام خطبة باللغة الأردية قبل الخطبة العربية ، وقد ذهب الإمام في خطبته مذاهب شتى وردد أشعاراً إسلامية حماسية وتطرّق إلى مقولات خالدة لأكابر الأمة ، وقال بكل شجاعة وبسالة : ماذا يستطيع عبدة الأصنام أن يفعلوا وقد حكمناهم طيلة ألف سنة .

مثل هذه الواقعة تبيّن أن المشكلة لا تكمن في أنهم ضحية اضطهاد الآخرين ، بل المشكلة تكمن في عقليتهم التي تكونت بفعل قادة المسلمين . إن المسلم هو داعية إلى الله ، ومهمة المسلمين أن يوقظوا هذه النفسية الدعوية إلا أن قادتنا قد خلقوا فيهم بكل جرأة النفسية الحاكمية ، وما نراه اليوم

المسلمين وتأييدهم لأنه نجح في تغذية تلك العقلية المتعطشة وإشباعها بألفاظ تزيد من حماسها وعاطفتها ، وألسنة المسلمين كثيراً ما تردد.هذا الشعر من أشعار إقبال : (اعتنق الصداقة والشجاعة والعدل مرة أخرى، سيتم اختيارك لإمامة العالم وقيادته) .

والمفكرون المسلمون يرددون نفس الكلمات بصورة أو بأخرى ، فهناك من يفسر الدين بمعنى (الحكومة) وهناك من يقول : إن هدف حياة المسلمين هو إقامة الحكومة الإلهية في الدنيا كلها ، وهناك من جعل إقامة الدين هو هدف المسلمين إلا أنه يعقب بعد ذلك بأن المراد بإقامة الدين إقامة الحكومة .

ذات مرة طرحت على شاب كشميري سؤالاً مفاده أن المسلمين يستحوذ عليهم الخمول في مجال العلم والاقتصاد إلا أنهم مستعدون دوماً لمحاربة الآخرين ومواجهتهم ، فما سبب ذلك يا ترى ؟ فأجابني الشاب قائلاً : السبب هو أن المسلم يظن بأنه دكتاتور . أعتقد أن هذه العبارة كافية لتحليل نفسية المسلمين المعاصرين .

محاسب الكون :

إن شيخاً مسلماً يتمتع بقبول في أوساط المسلمين ، ويعد من الشخصيات البارزة بين المسلمين المعاصرين يقول في كتاب مشهور له تحت عنوان : (حملة لواء الدين ومحاسبو الكون) : (إن المسلمين بالنظر إلى دينهم جيش الله في الأرض ومحاسبو الكون ، ففي اليوم الذي يستيقظون فيه ويقومون بمهامهم الملقاة على عاتقهم سيكون ذلك اليوم يوم الحساب بالنسبة لأمم الشرق والغرب)[1] . ويقول في موضع آخر : (الشيء الأهم هو أننا

(١) حملة لواء الدين ومحاسبو الكون : ص ٣٩٤ .

الأمة الأخيرة وحملة القرآن والداعين إلى الله ومحاسبو الكون) .

وقد عبر إقبال عن هذه الحقيقة على لسان إبليس ، حيث أثيرت في مجلس شورى لإبليس قضية الأمم المختلفة والمخاطر المتفاوتة التي يمكن أن تجتاحهم ، وأدلى رئيس المجلس بأن نظامنا تحوطه مخاطر الاشتراكية ومخاوف الملكية وأخطار الجمهورية إلا أن إبليس لم يغفل بهذه المخاطر بل رد قائلا :

إن كل نفس تضطرب من يقظة هذه الأمة

وأنه لحقيقة أن دينهم محاسب الكون

إن عقلية القيادات الإسلامية بأكملها تقريباً قد تبنت الفكرة القائلة بأن الأمة الإسلامية هي أمة حاكمة ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، إذ لم يكتفوا بكونهم (حكام الأمم) بل يطمحون إلى إعطاء المسلمين منصباً أعلى وأرقى يجعلهم حكاماً للكون وما فيه . إن هذا الطموح قد استلهمه الشاعر بقوة حدسه رابطاً إياه بمجلس شورى لإبليس ، وتم الإعلان عن أن المسلمين هم محاسبو الكون استناداً إلى قول إبليس المفترض .

فما أعجب ما يفعله المسلمون ، إنهم يبتدعون منصباً راقياً استناداً على مقولات إبليس ، في حين أن مقولات الله ورسوله تخلو تماماً من مثل هذا المنصب المفروض .

لا نجد في القرآن ولا في السنة النبوية كلها نصاً يشير إلى أن المسلم محاسب الكون ، ولكن الذين يحرصون على أن يروا أنفسهم في ذلك المنصب الكوني ابتدعوا ذلك واستخدموه من كلام إبليس المزعوم . لربما أعماهم حماسهم الجامح عن فهم أن مناصب المسلمين تؤخذ من كلام الله ورسوله وليس من كلام إبليس .

منزلة الحاكمية :

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما مصدر النظرية القائلة بأن المسلمين هم حكام الأمم . وهنا أيضاً نجد القرآن والسنة كلها خالية من نص واحد يقول بأن المسلمين حكام الأمم ، فمن أين لنا بهذه النظرية ؟ نعم هناك نص في كتاب الشيخ المذكور يقول : (ما يتعلق بإقامة المسلمين في دولة ما وتحديد مكانتهم ومهمتهم الوظيفية نجد لها نموذجين في سلسلة التاريخ الطويل وذخيرة الفقه الإسلامي الواسعة ، وهو إما إن يتبنى المسلمون حيثية الحاكم حيث تكون الدولة خاضعة لسلطان الحكومة الإسلامية كما كانت الامبراطوريتان الرومانية والفارسية خاضعة لبسط المسلمين في فترة ما بعد الخلافة الراشدة . وكان المد الإسلامي قد بسط سلطانه انطلاقاً من الجزيرة العربية إلى مراكش ، وكان المسلمون قد فتحوا الجزء الشمالي لإفريقيا بأكمله ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل عبروا البحر وفرضوا سيطرتهم على أسبانيا الأوربية ، وفيما يتعلق بهذه الحيثية نجد فيها أحكاماً واضحة وصريحة وإشارات قرآنية وآثار الصحابة توضح لنا موقع المسلمين ومنصبهم في مثل هذه الدول ... وإما أن يكونوا أقلية محدودة لا طاقة لها في إحداث أي أثر في شؤون الدولة ولا يحق لها أن تساهم في نظمها فهم يعيشون حياة محكومة خالصة)[٢] .

رغم أن هناك ذكر نموذجين في هذه العبارة إلا أن الواقع هو أن النموذج في الأصل – طبقاً لتوضيح الشيخ – واحد لا غير ألا وهو (الحيثية الحاكمية) ذلك أن الحيثية المحكومية في حد ذاتها ليست نموذجاً مستقلاً ،

(٢) نفس المصدر : ص ٩،٨ .

بل كل ما في الأمر هو أنها حالة غير مرضية ناشئة عن فقدان الحيثية الحاكمية المنشودة .

ترى ما هو مصدر هذا النموذج الحاكمي ؟ إننا نلمس إجابته من فقرة وردت في العبارة السالفة وهي : (بعد الخلافة الراشدة) فهي توضح أن شيخنا يعتبر انطلاق التاريخ الإسلامي منذ فترة ما بعد الخلافة الراشدة ، فالتاريخ الإسلامي لديه عبارة عن فتوحات الممالك وحكومة الأمم ، لذا فإنه قد عثر على نموذج راق وجيد هو (النموذج الحاكمي) .

إنه بلا ريب أن ذلك خطأ أكبر من جبال الهملايا ، لأن التاريخ الإسلامي ينطلق من بعد حراء وليس من بعد الخلافة الراشدة ، إنه ينطلق من مكة حين شرع النبي ﷺ في دعوة الناس إلى التوحيد ، ولو بدأ شيخنا من مكة لكان قد عثر – أولاً قبل كل شيء – على نموذج الداعية إلا أنه حين بدأ من بعد الخلافة الراشدة فلا عجب أن تصبح الحكومة والمناصب وما يتصل بهما هوية المسلم الأساسية .

إن نموذج الدعوة والداعية في التاريخ الإسلامي قد بدا عند (توماس أرنولد) لامعاً مشعاً إلى حد أنه قد خصص كتاباً يتناول هذا الموضوع يضم خمسمائة صفحة تحت عنوان (الدعوة إلى الإسلام) بينما المفكرون المسلمون لا يرون في التاريخ إلا النموذج الحاكمي ، ولا يتراءى لهم نموذج الداعية . ياله من فارق عجيب بين كاتب مسلم وكاتب مسيحي ، ربما يرجع ذلك إلى أن الباحث المسلم قد كتب التاريخ تحت عقلية متأثرة لا تعبأ بالموضوعية بينما ألفه المؤلف المسيحي تحت عقلية موضوعية متجردة .

عمى الدعوة :

من الأمراض التي تصاب بها العين ما يسمى بعمى الألوان (Colour blindness) والمصاب بهذا المرض يسمى أعمى الألوان

(Colour blind) وهو مرض ينشأ نتيجة حدوث خلل في حدقة العين (Retina) والمصابون بهذا المرض لا يتمكنون إلا من رؤية بعض الألوان دون البعض الآخر .

وهناك أنواع عدة لهذا العمى فمنهم من هو أعمى اللون الأزرق ومنهم من هو أعمى اللون الأخضر وهكذا ، غير أن المصاب به لا يشعر بإصابته بذلك المرض بل يجهله تماماً ، إنه على علم بتلك الألوان التي تسمح عينه برؤيتها بينما الألوان التي لا يتمكن من رؤيتها يحسب أنه لا وجود لها البتة .

إن أوضاع المسلمين الراهنة توحي لنا بأنهم أصبحوا مرضى من هذا النوع مما يدعونا إلى أن نطلق عليهم (عمى الدعوة) . إذ أن المسلم المعاصر يرى كل شيء سوى شيء واحد يتعامى عنه ألا وهو أمر الدعوة وما يتصل بها . وقد أصيب بهذا المرض أكابر المسلمين بقدر ما أصيب به عامتهم ، والمصاب بمرض عمى الألوان قد يحفظ أسماء الألوان مثلاً : الأحمر أو الأزرق أو الأخضر إلا أنه يجهل حقيقتها تماماً ، وهذا الأمر ينطبق تماماً على الذين أصبحوا عمي الدعوة ، حيث إنهم يرددون لفظة الدعوة لكنهم يجهلون حقيقتها تماماً . إنهم يرددون كلمة الدعوة إلا أنهم يتحدثون عن أشياء لا تمت بصلة إلى الدعوة حتى أنهم أحياناً يتجاوزون الحد حين يتفوهون بكلمات تخالف تماماً مصالح الدعوة وأنشطتها .

وكان من نتائج هذا العمى الدعوي أن المسلم المعاصر تتراءى له أحكام القتال في القرآن والسنة بينما يتغافل عن أحكام الدعوة إلى الله ، ويعثر على ألفاظ قيادية بهدف إبراز مكانة المسلمين ومنصبهم بينما هو لا يقف على الألفاظ الدعوية ، كما يجد في التاريخ الإسلامي وذخيرة الفقه نموذج المسلم الحاكم بينما يخفق في العثور على نموذج المسلم الداعية ، إنه على دراية بالمصطلحات التي تتعلق بدار الحرب ودار الإسلام لكنه يجهل مصطلح دار

الدعوة جهلاً مطبقاً ، إنه يرى في التاريخ الإسلامي وقائع فتوحات الممالك بينما يغفل تماماً وقائع تسخير القلوب ، ويبصر تلك الحقبة من التاريخ التي كان المسلمون فيها حكاماً ورؤساء بينما يتعامى عن تلك الحقبة التي كان فيها المسلم داعية إلى دين الله بين عباده .

هذا هو المسلم من الطراز الجديد ، ربما يصح القول بأنه مصاب بعمى الدعوة (Dawah blind) وهذا هو السبب الذي جعل المسلم يفهم الأمور الأخرى فور سماعها إلا أنه لا ينتبه إلى قضية الدعوة ومصالحها إذا ما عرضت أمامه كأنّ عقله عاجز عن إدراكها ، ولعل النتيجة الفادحة لهذا النوع من العمى الدعوي هو أن المسلمين لا تتراءى لهم تلك الإمكانات الدعوية التي يسرها الله لهم ، إنهم رغم وقوفهم على شفا إمكانات عظيمة اتخذوا الشكوى والاحتجاج شغلهم الشاغل . لنضرب لكم مثالاً توضيحياً على ذلك .

في محكمة كلكتة :

قد فصلت القول فيها تحت موضوع (الإمكانيات الجديدة للدعوة الإسلامية) لذلك سأكتفي بهذا الموجز حولها : لقد سجل قاضي محكمة كلكتة العليا (بدماخستفير) دعوى رفعها (جندن مل جوبرا) بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٨٥م والتي طالب فيها بفرض حظر على نشر القرآن وطباعته في الهند مدعياً أن القرآن يعرض عقائد تشكل خطراً بالنسبة للتيارات غير الإسلامية . وقد رفض القاضي (باسك) في ١٧ آيار ١٩٨٥م هذه الدعوى ، حين أعرب عن رأي المحكمة الأولية ، وهذا جانب مما ورد في إعلان المحكمة تحت رقم (٤٠) .

(للأسباب المذكورة سلفاً يبقى هذا الطلب مرفوضاً) .

For the aforesaid reasons this application stands dismissed.

وفي ١٤ نوفمبر ١٩٨٥م أعلن مستر ديبك سين ومستر شيامل القاضيان الناطقان بلسان المحكمة عن حكمها الأخير ، أعرب فيه المستر ديبك عن رأيه في أن القرآن هو كتاب أساسي مقدس لدى المسلمين ، و لم يحدث من قبل في أية دولة حضارية أن رفعت مثل هذه الدعوى ضد القرآن منذ زمن محمد ﷺ حتى الآن .

وأضاف القاضي قائلاً : إن البند رقم (٩٥) من القانون يمنع اتخاذ أية مبادرة من شأنها أن تفرض على القرآن أو الكتب المقدسة الأخرى ضوابط أو قيوداً قانونية ، هذا إلى جانب أن أية محكمة ليس لها صلاحية التدخل في شئون كتاب سماوي وتاريخي وقال القاضي شيامل معرباً عن رأيه : إنه لا يحق لنا أن نقبل في بلد علماني أية دعوى تطالب بفرض حظر على كتاب سماوي مقدس ، ولا يمكننا أن نضع عليه أية ضوابط أو قيوداً .

وطبقاً لمجريات الأحداث ، فإن المسلمين لا يحتاجون إلى القيام بأي عمل ضد دعوى (جندن مل) ، فقد قام الآخرون بكل ما يتصل بالقضية من رفض ودفاع ، حيث نشطت ضد دعواه كل من الحكومة العلمانية والمحكمة العلمانية من المسئولين الرئاسيين إلى المسئولين الآخرين ، و لم يهدءوا حتى رفضت الدعوى رفضاً قاطعاً .

إلا أن الجانب المدهش في الحادثة هو ما صدر من قبل المسلمين ، حيث أذاع المسلمون الهنود في وكالات الأنباء والمسلمون الأجانب في الصحف والمجلات بيانات وموضوعات حول الحادثة ، إلا أن تلك البيانات كلها قد تضمنت أمراً واحداً لا غير ألا وهو توجيه اللوم إلى الحكومة الهندية والتنديد بها لما حدث من رفع الدعوى ضد القرآن في المحكمة الهندية . لقد برز للجميع قضية الدعوى فحسب ، و لم يظهر لأحد القرار الذي صدر من المحكمة .

إن (جندن جوبرا) قد رفع مثل هذه الدعوى الساذجة والتافهة ضد القرآن من جهة ، ومن جهة أخرى حين فعل ذلك رفضت الدولة - حكاماً ورعايا - دعواه رفضاً قاطعاً ، ولم يقم من بين ۸۰۰ مليون نسمة أحد بالدفاع عن (جندن جوبرا) أو تأييده . فرغم أن الوجه الأول للحادثة أن (جوبرا) قام برفع دعوى ضد القرآن إلا أن الوجه الآخر لها أهم وأكبر حيث لم يقم أي شخص أو إدارة بالدفاع عنه ، وهذا الجانب يكشف لنا عن إمكان عظيم للدعوة الإسلامية لم يعثر عليه أحد من المسلمين ، والسبب الوحيد في ذلك أنهم مصابون بعمى الدعوة .

العقلية المحافظة :

إن العقلية المحافظة لدى المسلمين كان من نتائجها أنهم إذا رأوا مبدأ من مبادىء الإسلام التقليدية يكاد أن يزول أو ينمحي فإنهم يبدون رد فعل صارخ ضد أي حدث من ذلك النوع ، وفي المقابل نراهم غير عابئين بشأن الدعوة ، فهم لا يقلقون إذا ما أصيبت الدعوة بانتكاس ، ففي سنة ۱۹۷۹م مثلاً حين كانت مقاليد السلطة بيد حزب الشعب أصدر عضو منه وهو المستر أوبي تياجي قراراً يتصل بحرية الديانة **Freedom of religion** وكان الهدف من ورائه إنهاء عملية تغيير الدين للأبد[1] .

إلا أن القرار لم يحظ بقبول بل لقي معارضة صارمة ، ورفض البرلمان تأييده رفضاً قاطعاً ، والفضل يعود إلى المسيحيين الذين بذلوا كل غال ورخيص في سبيل رفضه ، بينما التزم المسلمون موقفاً حيادياً وكأن القضية لا تعنيهم أبداً .

---

(۱) التفصيل في مجلة الرسالة مايو ۱۹۷۹م .

انشغل المسلمون في إضرام نار الحقد الطائفي بينهم وبين طبقة الأكثرية فكانت النتيجة أن المسلمين يدفعون ثمناً باهظاً من جراء الفساد والاضطرابات الطائفية القائمة .

هذه الصورة أصبحت سائدة بين المسلمين في كافة أنحاء العالم . إن المسلمين في كل من سريلانكا وإرتريا وبورما والفلبين والموزمبيق وغيرها من الدول متخلفون في ميادين التعليم والاقتصاد والاجتماع بشكل يدعو إلى الدهشة . والسبب الوحيد في ذلك عدم تمكنهم من توجيه أنظارهم إلى الأعمال البناءة لتورطهم في مواجهة الحكام ومعارضتهم لهم .

واستمرت الحرب الإيرانية العراقية الدموية (١٩٨٠ - ١٩٨٨م) طيلة ثماني سنوات ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من الأرواح بدون فائدة ، إذ دفعت الحرب العالم الإسلامي إلى الوراء في ميادين البناء والعمران . ومثل هذه المسرحية الدموية معروضة في أرجاء العالم بشكل أو بآخر مما أدى بالمسلمين إلى خسران محقق ، ورغم هذه الحقبة الطويلة التي مرت بالمسلمين إلا أنهم لم يتمكنوا بعد من إعادة النظر في شأنهم .

ترى ما السبب في هذه الغفلة التي أدت بهم إلى شفا حفرة من الهلاك ؟ أقول إن السبب الوحيد في ذلك هو أن المسلمين صاغوا نظرية مصطنعة هي بمعزل عن الواقع ، إجابة منهم على سؤال (من نحن ؟) والتي أعمتهم من أن يروا مواطن الخطأ في أعمالهم . فالجهاد عندهم هو القيام بأعمال الشغب غير المجدية ، والتضحية عندهم هي أعمال التدمير والتخريب ، وإعلاء كلمة الله تعني لديهم الهتافات والصيحات ، والشهادة هي أن يسقطوا قتلى ، ومن ثم لا تتراءى لهم سياسة التناحر خاطئة ، والشيء الذي يراه المرء صائباً غير مستعد للتخلي عنه .

وكنتيجة لهذه الأفكار الخاطئة لا يوجه أي نقد للمهالك والأعمال

التخريبية تلك ، بل يتم تقديسها بكل عاطفة وحماس بالغين . وتلاحظ ذلك من المجلد الثاني لسيرة (السيد أحمد شهيد) تحت عنوان « مكانة شهداء بالاكوت » . إن هذا النوع من التقديس للخسارة إنما تجده لدى المسلمين المعاصرين فحسب ، فتاريخ الإنسانية يخلو من مثل هذا النوع من الجمود والتخلف العقلي . إن النتيجة الحتمية لتقديس الخسارة هو أن يستمر تسلسلها دون توقف .

الخطأ في التشخيص :

إن قضية مسلمي اليوم إنما هي قضية الخطأ في التشخيص . إنهم اكتشفوا إجابة خاطئة على سؤال (من نحن ؟) مما أدى إلى ذهاب أنشطتهم أدراج الرياح ، فضلاً عن أنهم فقدوا تلك المشاعر التي يمكنهم بواسطتها قياس الأخطاء وتحديد مواطنها والمبادرة إلى تصحيحها . وهذا الخطأ في التشخيص له عشرات الأمثلة في معظم كتابات قادة المسلمين وخطاباتهم .

(آزاد سجاني) عالم ديني متحمس ومتلهف إلى إقامة الحكومة الإلهية ، وقد علم أتباعه حين يلتقي أحدهم بالآخر ويقول أحدهم (السلام عليكم ورحمة الله) بأن يرد عليه الثاني (نحن خليفة الله) . إن ذلك يبدو غريباً إلا أنه يكشف لنا بوضوح عن أمزجة المسلمين المعاصرين وعقليتهم . إذ أن المسلمين وضعوا جواباً غريباً لسؤال (من نحن ؟) ألا وهو (نحن خلفاء الله) . واعتقدوا بأنهم خلفاء الله في الأرض وأنه قد تم اصطفاؤهم ليصبحوا حكاماً ورؤساء عليها وقادة الدنيا المنتدبين من قبل الله .

إن تلك العقلية غير قرآنية وغير ربانية ، وهي النموذج الغالب بين المسلمين حتى أنك لا تستطيع أن تحظى بتأييد المسلمين المعاصرين إلا إذا أشبعت هذا النموذج المتعطش من العقليات . إن (إقبال) يتمتع بقبول

من تخبّط المسلمين في مهاوي الهلاك ما هو إلا نتيجة لتلك الأخطاء القيادية .

إن السلطنة المغولية قد انهارت كما انهارت الخلافة العثمانية أيضاً في العصر الحديث ، ومن ثم نهض كثيرون للقيام بمهمة القيادة الإسلامية ، إلا أنهم تورّطوا في ارتكاب خطأ مشترك ، فلم يفكر أحد في تناول الأوضاع الجديدة بالبحث العميق والتحليل الدقيق على ضوء القرآن والسنة ، كلهم بدأوا يرددون بشكل أو بآخر الروايات السياسية الماضية ، وكلهم ساروا في درب واحد ، فكانت خلاصة محاولاتهم تنحصر فيما عبّر عنه إمام المسجد : « قد ظللنا حكام الدنيا ألف سنة ونحن الذين سنحتل مراكز السلطة مرة أخرى » . ولم يكن الأمر قد توقف عند هذا الحد ، بل تقدم البعض وأعلن (إننا محاسبو الكون ومهمتنا هي محاسبة الكون) . ونحن لا نشك في أن هذا القول خاطيء إلى حد كبير ومضحك أيضاً ، إنه هو الله وحده فقط الذي يحاسب الكون وما فيه إن شاء ، ولا حول ولا قوة لسواه حتى يقوم بمثل هذه المهمة الشاقة التي تخص الإلـٰه فقط .

وبناء على ذلك لا تجد أي دليل يثبت هذه النظرية غير الإسلامية وغير المنطقية ، لذا لجأت القيادات الإسلامية إلى تخيّلات شاعرية ، حيث تمّ عقد مجلس شورى لإبليس وافترضت المناصب المختلفة ، وأعلن بلسان إبليس عن حقيقة مفادها : (إنها لحقيقة بأننا محاسبو الكون) . والواقع أن الحقيقة المذكورة ليس مصدرها قرآن ولا سنة ، وإذا عثر أحد على آية قرآنية أو حديث نبوي يثبت أن المسلمين محاسبو الكون فليبعث به إليّ .

وعلاوة على ذلك فإننا لا نستطيع أن نقول بأنه كلام إبليس ، لأن هناك نقصاً - طبقاً لقوانين فن الرواية - وهو عدم ثبوت لقاء الراوي بإبليس ، فضلاً عن أن اعتماده في أمور دينية غير معتبر قطعاً . إلا أن كلام إبليس رغم ما يكتنفه من شكوك وتذبذب فقد حظي بقبول كبار القادة

والشيوخ ، حيث يرددون تلك الحقيقة وكأنهم أدركوها حق الإدراك ، بل إنهم يعتمدونها في تحديد مكانتهم ومنصبهم الصحيح ، وكأن المقولة تتصل بسلسلة ذهبية حتى تصل إلى إبليس[1] .

يا للعجب ! لمكانة الأمة الإسلامية التي لم يتناولها القرآن ولا الحديث بل ثم ابتداعها بشكل محير من كلام إبليس المفترض .

إن مسلمي العصر الحديث ورثة لهذه القيادة الخاطئة ، وعقولهم قد تكونت من شاعرية وإنشائية قادتهم المشهورين ، ولم تتشكل من كلام صادق صادر من الله ورسوله . وهذا الأمر الخطير جعل عقليتهم قد نسجت من اللغو وليس من الحقيقة ، حيث أصبح المسلمون أمة تعيش بنفسية الأمة الحاكمة ، بينما الحق والصحيح هو أن تعيش بنفسية الأمة الداعية .

والواجب علينا ، وقبل كل شيء هو أن نقوم بإصلاح هذه العقلية التي شوّهتها المفاهيم الخاطئة ، وقبل إتمام ذلك لا يمكن أن نقوم بأي عمل آخر بطريقة صحيحة ، ولا يمكن كذلك تغيير مستقبل حياة المسلمين . نعم يمكن لأحد ما أن يطلق هتافات محببة إلى الناس ويحشدهم لذلك ، إلا أن الأمر الذي لا مناص منه هو أن الانقلاب الحقيقي لا يمكن أن يقوم قبل الإصلاحات الفكرية مثلما لا يمكن أن تنبت شجرة بدون بذرة . مثل ذلك التاجر الذي أعماه الإحساس بالاستعلاء على الزبائن فيتم تقويم هذا الإحساس وإصلاحه ، لأن التجارة إنما تقوم بعقلية تجارية وليس بمزاج الاستعلاء والغطرسة .

والمسلم كما يعبّر القرآن هو (مذكّر) وليس بمسيطر على الآخرين : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ [الغاشية : ٢٢] ، إنه ليس

---

(١) تعمير حيات : أغسطس ١٩٨٨م .

قاضياً على الدنيا بل ناصحاً فيها . وهاتان الكلمتان تظهران بوضوح الفرق بين العقلية القرآنية ، والعقلية التي خلقتها القيادات الإسلامية .

ومما لا شك فيه أن المسلمين في العصور الماضية قد تمتعوا بأشياء كثيرة من بينها الغلبة والسلطة إلا أنها كانت منحة من الله و لم يحصل عليها المسلمون عن طريق الكفاح والنضال ، إن هذه الأشياء - وفقاً للنظرة الإسلامية - تمثل إنعاماً من الله وليست هدفاً في حد ذاتها . أما مهمتهم ومسؤوليتهم فهي أن يبلغوا رسالة الله إلى العباد ويتركوا ما دونه من أشياء بيد الله ، فهو وحده يعز من يشاء ويذل من يشاء ويعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء .

والمسلمون حين فقدوا مكانتهم القيادية ، لو أمعنوا النظر وتعمقوا في أسبابها لاتضح لهم أن هذه مصيبة قد نزلت بهم لتركهم مهام الدعوة . فلو أنهم ركزوا كل محاولاتهم في عمل الدعوة لاستحقوا إنعام الله مرة ثانية ، إلا أن الأمر قد اختلف حين تركزت أنظار المسلمين في الوقائع الظاهرية ، فهم قد رأوا الواقعة لكنهم لم يروا سبب الواقعة ، وكانت النتيجة هي أنهم قد انشغلوا في رفع الشكاوي والاحتجاجات والتناحر مع الأمم التي اعتقدوا أنها مسئولة عن سقوطهم وانهيارهم . لقد توجهوا إلى الإنسان بدل أن يتوجهوا إلى الله عز وجل ، وهاتان الكلمتان يكمن فيهما سر سقوط المسلمين وانهيارهم .

إن القيادات الإسلامية المعاصرة وقعت في خطأ فادح وخطير جداً ، وهو أنهم يفكرون في مصطلحين اثنين ، مصطلح الحاكم ومصطلح المحكوم ، ويبدو أنهم لا يعرفون - على المستوى الشعوري - عدا هذين المصطلحين . لقد فهموا أنهم حين لا يتمتعون بمكانة الحاكم فهم في عداد المحكومين ، وهذا خطأ فكري ناجم عن الاعتقاد بأن المرء إذا لم يظهر مكانة المسلمين الدينية ومنصبهم في مصطلح الحاكم فإنه بذلك يصبح متهماً بأنه يريد أن يجعل

المسلمين أمة محكومة ومغلوبة أيضاً .

إن مثل هذا الرأي ليس إلا دليلاً على قصور الفهم ، فهم يملكون ميزانين اثنين فقط ولا يملكون ميزاناً ثالثاً ألا وهو ميزان الدعوة إلى الله ، وينبغي عليهم أن يقابلوا الحاكم بالداعي بدل أن يقابلوه بالمحكوم . أن يعيش المسلمون عيشة المحكومين والمغلوبين هذا لغو لا نقول به ، ولكن من اللغو أيضاً أن نقول : إن المسلمين وجدوا ليصبحوا حكاماً ومحاسبين للكون .

ليس هذا ولا ذاك ، بل الصحيح هو أن هوية المسلم هي « الداعية » ، وأن مهمته هي الدعوة إلى دين الله الحنيف . إنها رسالة ربانية خالصة ، لو قام بها المسلمون لنالوا الإنعام الإلـهي ، ولزوّدهم الله – إن شاء – بنعمه في الحياة الدنيا سواء أكان ذلك على المستوى السياسي أو غيره .

بسم الله الرحمن الرحيم

مناشدة

• هل أعجبك هذا الكتاب ؟

• لدينا كتب أخرى للمؤلف نفسه :

١ - الاسلام يتحدى

٢ - الشريعة وتحديات العصر

٣ - الدين الكامل

٤ - القضية الكبرى

٥ - عليكم بسنتي

٦ - أخلاقنا

٧ - الاتحاد

8- GOD ARISES

9- MOHAMMAD AND PROPHET OF REVELUTION

10- GOD ORIENTED LIFE

11- ISLAM AS IT IS

12- MAN KNOW THYSELF !

13- WOMAN BETWEEN ISLAM AND WESTERN SOCITY

• لقد قررنا أن ننشر هذا التراث العلمي القيم ، ونعممه على أكبر عدد ممكن من الناس ، مسلمين وغير مسلمين .

• هل ترغب في المشاركة في هذا الجهاد الدعوى والثقافي ؟

:- بالتأكيد .

اذن بادر بالاتصال بـ :

Br. K. Kalimuddin
Tel : (718) 258-3435

وجزاكم الله خيرا

ينص القرآن على أن الإسلام دين كامل ، أي دين مستحكم ، إذ يمثل ظهور الإسلام نهاية مرحلة وانطلاقة مرحلة جديدة في تاريخ الدين الإلهي ، حيث تمّ القضاء على طور التدخل البشري في دين الله بعد ظهور الإسلام ، وأصبح الدين الإلهي ديناً كاملاً مستحكماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لتظل عظمته باقية إلى يوم القيامة ، ويضمن لأتباعه هداية ونهضة أبديتين .

